نظرية النبوة عند الفارابى

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٤ —

لم يكن عبثاً أن يسمى فلاسفة الاسلام أرسطو عظيم حكماء اليونان والرجل الألهى ، وأن يرفعوه إلى منزلة لم يسم إليها واحد من الفلاسفة السابقين أو اللاحقين[١] . ذلك لأنهم وجدوا لديه حلولاً لكل مشكلة اعترضتهم ، ووقفوا فى كتبه على مختلف المعلومات التى تاقت إليها نفوسهم . ودائرة المعارف الأرسطية واسعة وشاملة حقيقة بحيث يصادف الانسان فيها كل المسائل الفلسفية مدروسة دراسة مفصلة أو مشاراً اليها على الأقل . ولا تكاد توجد مشكلة من المشاكل الحديثة إلا وفى عبارات أرسطو ما يتصل بها تصريحاً أو تلويحاً . ويمكننا أن نقول إن هناك كتباً ديجها يراع أرسطو على أن تخدم فلاسفة الاسلام أولاً وبالذات . وحظ كتاب ما لا يقاس فى الواقع فقط بمقدار ما يحوى من أفكار ، بل يرجع أيضاً إلى ما يحيط به من ظروف ومناسبات . فقد يكون ثانوياً فى نظر مؤلفه ، ولكن الخلف يقدره تقديراً كبيراً لأنه اهتدى فيه إلى أجوبة على أسئلة العصر وحلول لمشاكل الجيل . ومن هذا الباب تماماً رسالتان صغيرتان لأرسطو لا يذكران فى شئ قطعاً إذا ما نسبا إلى مجموعة مؤلفاته ، ومع هذا صادفا نجاحاً عظيما فى الفلسفة المدرسية الاسلامية ، ونعنى بهما رسالة الأحلام (Traité des Rêves أو Peri Enupnion) ورسالة التنبؤ بواسطة النوم (La divination par le sommeil) ونحن لا ننكر أن هاتين الرسالتين تحتويان على ملاحظات دقيقة فى علم النفس فاقت كل النتائج التى انتهت إليها المدارس القديمة ، وإن تلاميذ أرسطو وأتباعه من المشائين اليونانيين عنوا بهما عناية خاصة . ولاسيما الأحلام وتعبيرها كانت من المسائل التى شغلت العامة والمفكرين فى القرنين السابقين للميلاد والقرون الخمسة التى تليه ، وبعبارة أخرى فى ذلك العصر الذى سادت فيه العرافة والتنجيم . غير أنا نلاحظ أن الرسالتين الآنفتى الذكر أحرزتا فى العالم العربى منزلة لا نظير لها ، ولا نظن أن أرسطو نفسه كان يحلم بها . ويكفى لتعرف هذه المنزلة أن نشير إلى أنهما الدعامة الأولى التى قامت عليها نظرية الأحلام والنبوة عند الفارابى

لا نظننا فى حاجة إلى أن نثبت أن هاتين الرسالتين أرسطيتان ، فأسلوبهما وطريقتهما دليل واضح على ذلك ، وأرسطو يشير إليهما فى بعض رسائله الأخرى الثابتة[٢] . وقد تولى زلر (Zeller) من قبل توضيح هذه النقطة بما لا يدع زيادة لمستزيد[٣] . والذى يعنينا هنا أن نبين ما إذا كانت هاتان الرسالتان ترجمتا إلى العربية أولاً . وهذه مسألة غامضة بعض الشئ ، وليس من السهل البت فيها برأى جازم . فأن المؤرخين ، وخاصة ابن النديم والقفطى ، حين يتحدثون عن كتب أرسطو التى ترجمت إلى العربية لا يشيرون إليهما ؛ وكأن ما ترجم من كتبه السيكلوجية ليس إلا كتاب النفس المعروف ، ورسالة الحس والمحسوس[٤] . والفارابى نفسه فى رسالته المسماة : «ما ينبغى أن يقدم قبل تعلم الفلسفة» يقسم الكتب الأرسطية من حيث موضوعها إلى ثلاثة أقسام : تعليمية وطبيعية وإلهية . وبين الكتب الطبيعية لا يذكر رسالتى الأحلام والتنبؤ بواسطة النوم اللتين اعتاد الشاءون السابقون عدهما فيما بينهما .[٤] وكل ما يحظى به الباحث إنما هو إشارة غامضة إليهما فى ثبت الكتب المنسوبة إلى أرسطو ، والذى أخذه العرب عن بطليموس الغريب[٥] . بيد أنا على الرغم من كل هذا نميل إلى الاعتقاد بأن

(١) ابن رشد ، مقدمة كتاب الطبيعة (الترجمة اللاتينية) انظر أيضاً Rennan, Averroès p. 55

(١) Aristote, De somno, 11, 456 d, 16.

(٢) Zeller, Die Philos. der Griechen, 11, 2, p. 44-96.

(٣) ابن النديم ، الفهرست ، طبعة القاهرة ، ص ٣٥١ — ٣٥٢ القفطى ، تاريخ الحكماء ، طبعة ليبزج ، ص ٤١

(٤) الفارابى الثمرة المرضية ، ص ٥١ . نجد هذا التقسيم بنصه تقريباً فى طبقات الأمم لابن صاعد (ص ٢٥) . ويغلب على الظن أن هذا الأخير أخذه عن الفارابى

(٥) القفطى ، تاريخ الحكماء ، ص ٤٤ . يظهر أن العرب أطلقوا كتاب الذكر والنوم على المجموعة التى يسميها المحدثون :

هاتين الرسالتين إن لم تكونا قد ترجمتا إلى العربية رأساً ، فقد وصلتا إليها عن طريق غير مباشر . وابن النديم يحدثنا عن كتاب فى تعبير الرؤيا لأرطا ميدورس نقله حنين بن اسحق إلى العربية [١] ؛ ولا يبعد أن يكون العرب قد استقوا من هـــذا الكتاب أو من أى مصدر تاريخى آخر أبحاث أرسطو المتعلقة بالأحلام وتأويلها . ذلك لأن فلاسفة الاسـلام يدلون فى هذا الصدد بآراء تشبه تمام الشبه الآراء الأرسطية . فحديث الفارابى عن النوم وظواهره والأحلام وأسبابها لا يدع مجالاً للشك فى أنه متأثر بأرسطو وآخذ عنه . وقد كتب الكندى من قبل رسالة فى ماهية النوم والرؤيا وصل الأمر ببعضهم أن عدها ترجمة لبعض الرسائل الأرسطية [٢] . وربما كان أقطع شىء فى هـذه المسألة أن نلخص آراء أرسطو ، وفيها وحدها ما يكفى لاثبات أن فلاسفة الاســـلام تتلمذوا له هنا كما أخلصوا له التلمذة فى مواقف أخرى

يذهب فيلسوف اليونان إلى أن النوم هو فقد الاحساس ، وأن الحلم صورة ناتجة عن المخيلة التى تعظم قوتها أثناء النوم على أثر تخلصها من أعمال اليقظة [٣] . وبيان ذلك أن الحواس تحدث فينا آثاراً تبقى بعد زوال الأشياء المحسة . فاذا ما جاوزنا الشمس إلى الظل قضينا لحظة ونحن لا نرى شيئاً ، لأن أثر ضوء الشمس على العينين لا يزال باقياً . وإذا ما حدقنا النظر إلى لون واحد طويلاً خيل إلينا بعد مفارقته أن الأجسام كلها ملونة بهذا اللون [٤] . وقد نصم بعد سماع قصف الرعد ؛ ولا نميز بين الروائح المختلفة إذا شممنا رائحة قوية [٥] . كل ذلك يؤيد أن الاحساسات تترك فينا آثاراً واضحة . وهـذه الآثار الخارجية تعطينا فكرة مقربة عن آثارها الداخلية التى تحتفظ بها المخيلة وتبرزها عند الظروف المناسبة [١] . فالأحلام إذن احساسات سابقة ، أو بعبارة أدق ، صور ذهنية لهذه الاحساسات تشكلها الخيالة بأشكال مختلفة . على أن الاحساسات العضوية أثناء النوم قد تؤثر فى الأحلام كذلك ، فيحلم الأنسان بالرعد مثلاً إذا صاح صائح أو دبك بالقرب منه ، أو أنه يأكل عسلا أو طعاماً لذيذاً لأن نقطة غير محسوسة من المزاج جرت على لسانه . وقد يرى النائم أنه يحترق فى اللحظة التى يقترب فيها من جسمه لهب ضئيل [٢] . وليست الاحساسات وحدها هى التى تؤثر فى الأحلام ، فأن الميول والعواطف ذات دخل كبير فيها . فالمحب يحلم بما يتفق وحبه ، والخائف يرى فى نومه عوامل خوفه ويعمل على اتقائها [٣] . وكثيراً ما نحلم بأشياء رغبت فيها نفوسنا أو فكرنا فيها طويلا [٤] . هـذه هى الأحلام فى حقيقتها وأسبابها . وعلى فى هذه الأسباب ما يسمح لنا بتأويلها أحيانا . وقد يستعين الأطباء على معالجة مرضاهم وتشخيص دائهم بسؤالهم عن بعض أحلامهم [٥] . وإذا عرفت الأحساسات والظواهر النفسية المحيطة بحلم ما أمكن تعبيره . ومهارة مفسرى الأحلام قائمة على أنهم يتلمسون وجوه الشبه الموجودة بين الأحلام بعضها وبعض ، والعلاقات التى بينها وبين ظروف أصحابها الخاصة [٦] . بيد أن كل هذا لا يبيح لنا أن نتقبل الرأى الشائع القائل بأن الأحلام وحى من الله ، فأن العامة والدهماء يحلمون كثيرا بل المصابون والمرتادون أكثر أحلاماً من غيرهم ؛ ولا يستطيع العقل أن يسلم بأن الله خص هؤلاء أو أغدق عليهم فيضه [٧]

لابد أن تكون هذه الأفكار الأرسطية قد وجدت السبيل الى العالم العربى حيث شغل موضوع الأحلام المفكرين على اختلافهم . فأهل الحديث ، معتمدين على بعض الآثار ، يفرقون بين الرؤيا الصادقة وأضغاث الأحلام [٨] . وهناك أحاديث كثيرة

= (Parwo naturalia) وهـذه المجموعة تشتمل على رسالة الأحلام والنبؤ بواسطة النوم

وبطليموس الغريب شخصية مجهولة ، ويرجح أنه من مفكرى الرومان فى القرن الأول أو الثانى الميلادى . وقد اشتغل بأرسطو وترجم له وأبان كتبه (القفطى ، ٨٩ — ٩٠)

(١) الفهرست ، ٣٥٧ . أرطاميدورس أو أرطيميدور هـذا كاتب يونانى من رجال القرن الثانى الميلادى ؛ وله كتاب حقيقة عنوانه : تأويل الأحلام

(٢) Hauréau, Notices sur les manuscrits latins de la Bibliothéque nationale, Paris, 1869, t. v, p. 201.

(٣) Aristote, Traité des Rêves, I, 9 — 10

(٤) Ibid., II, 4

(٥) Ibid., II, 5,

(١) Ibid., II, 11.

(٢) Arstote, La divination, II, 7

(٣) « Traité des Rêves, II, 12

(٤) « La divination, II, 9.

(٥) Ibid., II, — 6.

(٦) Ibid., II 9.

(٧) Ibid., I, 2 — 3

(٨) الأشعرى مقالات الاسلاميين ، II ، ٤٣٤

متصلة بالأحلام وأنواعها نكتفي بأن نشير الى بعضها . روى ابن ماجة عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الرؤيا ثلاث : فبشرى من الله ، وحديث من النفس ، وتخويف الشيطان . وفي الصحيحين : « الرؤيا ثلاث : رؤيا من الله ورؤيا من الملك ورؤيا من الشيطان . والمعتزلة يرون في الأحلام آراء مختلفة : فيرجعها بعضهم الى الله ، ويذهب بعض آخر إلى أنها من فعل الطبائع[١] ومنهم من يجمع بين هذين ويقول إنها على ثلاثة أنحاء : نحو يحذّر الله به الانسان في منامه من الشر ويرغبه في الخير ، ونحو من قبل الانسان ، ثم نحو أخير من قبل حديث النفس والفكر[٢] . ويقول النظام إن الرؤيا خواطر مثل ما يُخطِر البصر[٣] . وهذا التفسير على اختصاره يحمل في ثناياه بعض الأفكار الأرسطية

إلا أن رأي أرسطو في الأحلام يبدو بشكل واضح لدى الفلاسفة . وقد خلف الكندي رسالة في ماهية النوم والرؤيا سبق أن أشرنا إليها . وهذه الرسالة لا تزال حتى اليوم بين مخطوطات استامبول ، ونرجو أن نوفق الى نشرها قريباً[٤] وقد وقفنا عليها من طريق آخر ، فان المستشرق الايطالي البينو ناجي نشر في أخريات القرن الماضي بضع رسائل للكندي مترجمة الى اللاتينية[٥] وبين هذه الرسائل واحدة عنوانها De somno et visions (النوم والرؤيا) ، ويكاد يكون من المحقق أن هذه الرسالة اللاتينية ليست إلا ترجمة للرسالة العربية المتقدمة . ونظرة الى هذه الترجمة اللاتينية تكفي لأثبات أن الكندي تأثر تمام التأثر بأبحاث أرسطو السابقة المتعلقة بالنوم والرؤيا . وقد قارن البينو ناجي بعض التعريفات الكندية بما يقابلها من التعريفات الأرسطية وأظهر في جلاء ما بينهما من قرابة[٦] . وبهذا وضع الفيلسوف العربي أساس نظرية الأحلام الفلسفية في الاسلام

(يتبع) ابراهيم مدكور

(١) المصدر نفسه ، II ، ٣٤٣

(٢) المصدر نفسه ، II ، ٤٣٣ ، ٤٣٤

(٣) المصدر نفسه ، II ، ٤٣٣

(٤) Bitler , Archiv Orientalni IV 1932, p. 64.

(٥) A l Kundi , Die philos. Abh. p 12 et sulv.

(٦) Ibid. , p. xxIII.

صور سياحية

٦ ـ يوم في فرساي

بقلم سائح متجول

في باريس جمهرة من الصروح والمشاهد التاريخية العظيمة التي تجذب الزائرين بماضيها وروعتها ؛ ولكن فرساي تتمتع بشهرة خاصة في التاريخ والسياسة ؛ وقد كانت مسرح بعض الأحداث العالمية الكبرى التي غيرت مصاير التاريخ والأمم ؛ وبستان فرساي آية في العظمة والروعة والجمال

فمتى كنت في باريس ، فيجب ألا تفوتك زيارة فرساي وقصرها العظيم

وفرساي في الواقع من ضواحي باريس ، ولا تبعد عنها أكثر من ثمانية عشر كيلو متراً ؛ وفي وسعك أن تصل إليها بواسطة قطر خاصة من المترو تسير إليها يوم الآحاد ، وفي وسعك أن تقصد إليها بواسطة القطار العادي من محطة مونبارناس

وفرساي مع ذلك مدينة كبيرة يبلغ سكانها زهاء ستين ألفاً تخترقها شوارع كبيرة ، وبها كثير من الفنادق والمطاعم التي أعدت على ما يظهر خصيصاً للوافدين عليها ؛ وفي يوم الآحاد تبدو فرساي كأنها في عيد ، وتكثر فيها الحركة بما يتقاطر عليها من وفود الزائرين من أهالي باريس ، ومن الأجانب من مختلف الأمم

قصدنا إلى فرساي في صباح يوم أحد بالقطار العادي ، وكان غاصاً بالقاصدين إليها من فرنسيين وأجانب ؛ وكان يوماً بديعاً سطعت شمسه بعد أن أزعجنا المطر في باريس أياماً متوالية ؛ فوصلنا إلى فرساي في نحو نصف ساعة ؛ وقصدنا إلى القصر توّاً ، وهو قريب من المحطة ، يشرف على ساحة واسعة ؛ ولفت نظرنا لأول وهلة كثرة الجند الذين يتجولون في المدينة ، وفي فرساي كما علمنا حامية كبيرة

ومن الغريب أن واجهة القصر الخارجية لا تتمتع بكثير من الجمال والروعة ، ومنها يبدو البناء كأنه معسكر ضخم ؛ ولقد ذكرنا ذلك بواجهة قصر الفاتيكان الخارجية التي لا تدلي بشيء من عظمته الداخلية ؛ بيد أننا ما كدنا نجوز إلى ساحة القصر